جماليات اللباس التقليدي الجزائري في اللوحة التشكيلية
دراسة انتقائية لبعض اللوحات الفنية للفنان محمد راسم

The algerianaesthetic's traditional dress in plastic painting
A selective study from artist Mohamed Racim painter

د. معروف مختارية حنان
قسم الفنون، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر
marouf.makhtaria@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/19 تاريخ القبول: 30-/2022/04 تاريخ النشر : 2022/06/04

ملخص: يعد اللباس التقليدي المظهر المادي والموروث الثقافي لدى الشعوب، كونه يعبر عن تاريخها ورقيّ حضارتها وما حقّقته تلك الشعوب من تطوّر في الميدان الثقافي والفني والاقتصادي ...الخ ولأنّ الفنان التشكيلي سفير مجتمعه وابن بيئته فقد تفتّحت عيناه على هذا النوع من التراث المادي ألا وهو اللباس التقليدي، حيث انكب عليه العديد من الفنانين التشكيليين على غرار محمد راسم ومحمد تمام وإتيان دينيه ...وغيرهم ممن استمدوا منه موضوعاتهم لبناء لوحات فنية خالدة ومتميّزة تؤكّد القدرة الإبداعية الجمالية لهؤلاء الفنانين أمام زخم تراثي متنوع تزخر به بلادنا الحبيب يجمع بين النايلي والأمازيغي والعاصمي والوهراني ...الخ

كلمات مفتاحية: الفن التشكيلي، الفن التشكيلي في الجزائر، اللباس التقليدي.

Abstract: Traditional clothes are considered as material significance and cultural heritage of people, as it expresses their history and the progress of their civilisation which achieved by them in different field such as cultural, artistic and economic field ...ect Since the age of primitive man, there was interested of clothing, as the need for it was urgent either to protect the body from coldand heat , or to express the position of man within his

society or that it was taken as an aesthetic function that express the sophistication in any society from communities This latter could build immortal and district artistic paintins that confirm the aesthetic creative ability of these artists in front of a diverse and greatness heritage that abounds in our beloved country such as:TheNily, The Amazigh, The Assimi, The Orani…and so on

Keywords: Plastic art, Plastic art in Algeria, Traditional cloth..

1. مقدمة:

يعدّ الفن التشكيلي وسيلة للتواصل بين الشعوب وهمزة وصل بين الحضارات عبر ألوان وخطوط وأشكال تحمل دلالات وتأويلات في خطاب فني متكامل. وقد شهد الفن التشكيلي تطوّرا ملحوظا مع منتصف القرن العشرين بتطور التكنولوجيا والمنجزات العلمية، فبرزت وأبدعت اتجاهات وتيارات فنية متنوعةّ في الطرح والأسلوب والوسائل والرؤى.

ولأن الفنان ابن بيئته والمعبر عن ثقافة مجتمعه عمد الفنان التشكيلي الجزائريعلى ترسيخ هويته من خلال إحياء تراثه المادي واللامادي بغية التحرر من التبعية الغربية، فعكف ينحت لوحات فنية خالدة تجسّد ثقافة مجتمعه الشعبية من لباس وحلي وعمران وعادات ...الخ.

يعدّ الفنان محمد راسم واحدا من أهم الفنانين التشكيلين الجزائريين الذين تشرّبوا من تراثهم المحلي، حيث استحضر في لوحاته مختلف أشكال التراث من عمران وحلي ولباس تقليدي وشخصيات تراثية عبر خطوط وألوان تبهر الناظرين وتشدّ انتباههم لمدى روعة وتقدّم ورقيّ المجتمع الجزائري قبل مجيء المستدمر الفرنسي.

فإلى أي مدى ساهمت منمنمات محمد راسم في تصوير الحياة الثقافيةوالاجتماعية والدينية للمجتمع الجزائري؟وفيما يكمن البعد الدلالي والجمالي لتلكاللوحات؟.

2.مراحل تطور الفن التشكيلي في الجزائر:

مرّ الفن التشكيلي في الجزائر بمراحل عدة عبر حقب زمنية وظروف سياسية واجتماعية

مختلفة تأثّر فيها الفنان التشكيلي بمدارس فنية تراوحت بين التكعيبية والواقعية والانطباعية والتجريدية والسريالية...وغيرها.وقد تكوّنت على إثرها جمعيات وتيارات فنية ساهمت في تطور الفن التشكيلي في الجزائر وأعطت طابعا فنيا متميّزا له.

ولعلّ المتتبّع لتاريخ الفن التشكيلي في الجزائر يلحظ أنّ بدايات هذا الفن تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، أين تفنّن الإنسان البدائي في رسم حيوانات وأشكال بسيطة على جدران الكهوف غايته في ذلك المحاكاة بغاية نفعية تهم الجماعة[1]. فهو يحاكي عصره ويصور يومياته عبر رسومات تجسّد حضوره وتؤرّخ لعصره، مثال ذلك ما وجد في جبال الهقار من رسومات ونقوش بدائية تعود لأكثر من ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد.

ومع مرور الزمن شهد الفن التشكيلي في الجزائر تطوّرا ملحوظا بتطوّر الحضارات وتعدّدها من فينيقية إلى رومانية إلى إسلامية وغيرها، حيث استفادت الحضارة الرومانية من الحضارة الإغريقية، فعرفت هذه الفترة ازدهار الفسيفساء والنقش على المرمر وكذا زخرفة الهياكل ونحت التماثيل، وقد أسهمت الفلسفة الجمالية الإغريقية في تطور العمل الفني[2]، حيث كانت تنظر للطبيعة بوصفهما إحدى الينابيع الرئيسية للجمال.

كما عرفت الجزائر في الفترة العثمانية فنونا عدّة خاصة فن العمارة بما يتضمن من زخرفة ونقش على الخشب ومختلف الأدوات، إضافة إلى بعض اللوحات التشكيلية التي تؤرخ لتلك الفترة منها على سبيل المثال اللوحة التي وجدت في قصر حسين باشا والتي جسدت موضوع المعركة التي خاضها العب الجزائري ضد الانجليز سنة1824م[3] وهي لوحة لازالت موجودة في مكتبة الجزائر.

3. تطوّر الفن التشكيلي في الجزائر قبل وبعد الاستقلال:

رغم المحاولات الجاهدة التي قام بها الاحتلال الفرنسي من أجل طمس الهوية الجزائرية

ومقوماتها[4]، إلا أنها باءت بالفشل إذ كان الشعب الجزائري متيقّظا لكل تلك المؤامرات والدسائس، حيث ظل متمسّكا بوطنيته وهويته، محافظا على تراثه المادي واللامادي.

ومع اندلاع الثورة التحريرية التي قادها نخبة من المثقفين والعسكريين والسياسيين عمد هؤلاء على إيصال صوت الجزائر بكل الوسائل بالسلاح والقلم والريشة، ولعل اهتمامهم بالثقافة والفن دفعهم إلى إرسال بعثات إلى الخارج من أجل التكوين في المجال الفني ومن بين هؤلاء نذكر: محمد راسم ، إبراهيم مردوخ، إسماعيل صمصوم، عبد العزيز رمضان، فارس بوخاتم، عبد القادر هوامل،عابد مصباحي...وغيرهم من الفنانين الذين عبّروا عن هموم الشعب الجزائري وآماله وآلامه متخّذين من الوطنية شعارا لأعمالهم الفنية[5].فقد صوّرت أعمالهم الإبداعية شخصيات ثورية خالدة كشخصية الامير عبد القادر والمقراني وأولاد سيدي الشيخ وبوعمامة.

ومع بزوغ فجر الحرية على الجزائر عرف الفنان التشكيلي المغترب طريق العودة إلى بلده الجزائر وبدأ كل من ازووا معمري وعبد الحليم همش ومحمد زميلي، وميلود بوكرش مشروعهم التأسيسي للفن التشكيلي الجزائري المشبّع بالثقافة الجزائرية وتراثه الأصيل.

وهكذا تأسّست على إثرها المدرسة الوطنية للفنون الجميلة وجمعية الفنون الجميلة بالجزائر وكذا المدارس الجهوية التي ساهمت في تخرج العديد من المواهب في الفن التشكيلي كما أقيمت المعارض الفنية الفردية والجماعية التي ساهمت في نشر الوعي الفني لدى المجتمع الجزائري، كما كان لها دور مهم في تطور الفن التشكيلي في الجزائر.

من هنا يمكن القول بأن الفن التشكيلي في الجزائر شهد فترات وتجارب مختلفة عبر العصور كان لها شأن في تطوّره وانتعاشه، كما حملت الأعمال الإبداعية للفنانين مزيجا متميّزا من الرؤى الفنية كانت بمثابة قيم مضافة للفن التشكيلي.

4. حضور اللباس التقليدي الجزائري في اللوحة التشكيلية:

شكّل التراث منبع الهام الفنان التشكيلي الجزائري كونه يحدّد الخصوصية التاريخية والثقافية والفنية للمجتمع فراح ينهل من تراثه المحلي مبدعا لوحات تشكيلية متميّزة أعطت لذلك المبدع هويّته وحضوره الثقافي.

ولعل دافع الفنان التشكيلي من وراء استحضاره للتراث مرده إلى التعبير عن الحنين إلى ماضيه المجيد وتصويره لشخصيات تراثية لمعت في سماء الذاكرة الجزائرية بحليّها ولباسها التقليدي المتميّز والمتنوع وكذا المعارك والبطولات التي خاضتها تلك الشخصيات التراثية.

كما سعى الفنان من وراء توظيفه للتراث إلى البحث عن أساليب تشكيلية ذاتية جديدة تكون أكثر ارتباطا والتصاقا بالذاكرة الثقافية للمجتمع الجزائري.

ويمثّل اللباس التقليدي الجزائري ذاكرة الهوية الثقافية والتاريخية في المنجز التشكيلي،تلك الهوية التي شكّلت هاجسا شغل فكر الفنان التشكيلي الجزائري، فراح يستحضر اللباس التقليدي في لوحات إبداعية متميّزة نذكر منها منمنمات الفنان التشكيلي محمد راسم *(1896-1975) التي تراوحت مواضيعها بين التاريخية والاجتماعية والدينية.

تميّزت أعمال محمد راسم الفنية بتشرّبها من التراث المحلي، حيث" تمثّل مختلف جوانب حياة المجتمع الجزائري"[6] ،كما استحضر أشكال التراث المحلي للمجتمع الجزائري من لباس وعمران وشخصيات تراثية...، وقد شكّلت منمنماته وثيقة تاريخية تمجّد تاريخ الجزائر العميق مبجّلا انتصارات أبطاله، مذكّرا بالأيام الحافلة بالمجد والحضارة والرقي الذي عاشته الجزائر قبل الاستدمار الفرنسي مصوّرا في لوحات فنية _مزخرفة بالألوان الزاهية والمفعمة بالحياة _ اللباس التقليدي من قفطان وبدرون وقندورة مختلفة الأشكال والألوان تلك اللوحات التي اعتبرت سفيرة الحضارة والثقافة الجزائرية والإسلامية، مثال ذلك نذكر:

أ_لوحة تزيين العروسة :[7]

هي رائعة من روائع الفنان محمد راسم ، إنها لوحة تزيين العروس تلك اللوحة التي جسّدت عادات المجتمع الجزائري وتقاليده وطقوسه في تزيين العروس يوم زفافها، حيث تظهر العروس في أبهى زينة، وقد حرص محمد راسم على تصوير كل الجوانب المهمة بتزيين العروس الجزائرية بداية بالتحضيرات التي تسبق العرس مرورا باللباس التقليدي الذي أولاه اهتماما بالغا وهو لباس خاص تلبسه العروس ويميّزها عن بقية الحاضرات، كما اهتم بتسريحة الشعر البسيطة المزيّنة بالتاج الذي تضعه العروس فوق رأسها والحلي الذي تتزّين به والحنة التي تضعها على راحتي يديها، إضافة إلى الزينة الموضوعة على وجه العروس من كحل وأحمر شفاه وأحمر خدود تظهر الملامح الصافية والجمال الطبيعي للعروس

الجزائرية وهي محاطة بامرأتين جالستين أوكلت لهما مهمة تزيينها وإظهارها في أحسن صورة أمام العريس وأهله.

ب_ لوحة ليلة الزواج:[8]

جاءت هذه اللوحة مكمّلة للوحة تزيين العروس، حيث تكشف لنا عن مراسم الاحتفال وتزيين العروس الجزائرية ليلة الزفاف، وهي إحدى عادات وتقاليد المجتمع الجزائري والتي تصنّف ضمن التراث اللامادي للمنطقة، حيث نرى العروس تتوسط النساء الحاضرات في إحدى بيوت القصبة العريقة المزيّنة بالزرابي وهي متزينة بأبهى الثياب التقليدية الجزائرية والحلي والحنة، تتوسط الحاضرات اللاتي يرتدين أبهى الفساتين التقليدية من قندورة وقفاطين

وهن يستمتعن بالموسيقى التقليدية الجزائرية والأغاني التي يرددنها فرقة المسامعيات وهي فرقة تضم بعض النسوة اللاتي ترتدين ملابس تقليدية يعزفن بالعود والكامنجاوالبندير ومختلف الآلات الموسيقية التقليدية أحلى الأغاني العاصمية الخاصة بالأعراس وهن يمتعن الحاضرات ويضفين جوا دافئا ملؤه البهجة والفرح بالعروس.

ج_ لوحة خير الدين بربروس[9]:

يعد خير الدين بربروس من خيرة الأبطال الذين تركوا بصماتهم في تاريخ الجزائر، ورد تاريخيا اسم الرجل مقترنا باسم أخيه عرّوج أو كما سماهما المستدمر بالأخوين باربا‌روس[10]. وقد استحضر الفنان محمد راسم هذه الشخصية في لوحته احياءا للماضي التليد واستشرافا لمستقبل يماثله.

أظهر الفنان محمد راسم شخصية بربروس في محل الصدارة وهو بكامل أناقته للدلالة على النظرة الثاقبة وعظم المسؤولية التي تولاها، حيث تبدوا شخصية القائد بملامح جذابة حادة توحي بالثقة والشجاعة التي اتصف بها بربروس، وهو يقف وقفة شامخة وقفة النبلاء

الأبطال، تدل تفاصيله الجسمانية وملامح وجهه إلى أصوله التركية فبشرته البيضاء ولحيته الحمراء وشارباه المفتولان تزيّنه عمامة ذهبية يضعها فوق رأسه وهي عمامة "عبارة عن لفافة أسطوانية الشكل ومقببة من نسيج الموسلين تلف حول الشاشية الحمراء اللون، وفي الأعياد والمناسبات تزخرف المقدمة بجوهرة"[11] .أما عن الثياب التي يرتديها القائد بربروس فهي توحي بالمكانة الاجتماعية وكذا الإطار التاريخي للشخصية كما ترمز بأناقتها وألوانها الجذابة إلى القوة المجد والغنى الذي تمتّعت به شخصية بربروس.

اللباس عبارة عن قفطان بوجهين الأول أصفر ذهبي ورداء خارجي باللون الأخضر مزيّن بخطوط تتراوح بين الأسود والأحمر والبني يضاف إلى القفطان قميص أو ما يسمى بالجبة برتقالية مزركشة بأشكال هندسية يتوسّطها حزام من القماش الرفيع يحمل فيه خنجريه وسيفه وهي دلالات بأنّ القائد بربروس رجل حرب.

هكذا تبدوا شخصية خير الدين بربروس في لوحة الفنان محمد راسم فهي شخصية تاريخية فذّة وقويّة، كيف لا وهو قائد الأسطول الجزائري، كما وثّقت اللوحة العديد من المحطات التاريخية التي عاشتها الجزائر أيام مجدها وانتصاراتها، القوية بأسطولها الذي كان يخشاه الجميع.

5. خاتمة:

شكّلت منمنمات محمد راسم مرآة عاكسة للتراث المحلي للبيئة الجزائرية سواء بتصوير الهندسات المعمارية المزخرفة والمزركشة بألوان مبهجية، أو برسم الألبسة التقليدية للشخصيات التاريخية لتعبّر عن مكانتها، وكذا البيئة الثقافية التي تنتمي إليها.

كما أرّخت تلك الألبسة التقليدية للحقبة الزمنية التي انتمت إليها تلك الشخصيات ألا وهي الفترة العثمانية، فما إن يشاهد المتلقي منمنمات محمد راسم إلا ويدرك القيمة الفنية والتاريخية

لتلك اللوحات التي شهدت على أصالة المجتمع الجزائري المستمدة من عمق الحضارة العربية الإسلامية.

ومن خلال استقرائنا لبعض لوحات محمد راسم خلصنا إلى مجموعة من النتائج نذكرها كما يلي:

_ نشأ الفنان محمد راسم في بيئة فنية متمسّكة بتراثها وعادات مجتمعها وأصولها التاريخية المتينة.

_ عبّرت منمنمات محمد راسم عن انتمائه القوي وصلته المتينة بمجتمعه.

_عكست لوحات محمد راسم الحس الجمالي والقدرة الإبداعية العالية للفنان.

_شكّلت لوحات محمد راسم وثائق تاريخية تشهد لحقبة زمنية عاشها المجتمع الجزائري تميّزت بالرخاء والترف والرقي.

_ كثيرا ما يجنح الفنان محمد راسم إلى الألوان الجذابة التي تغلب عليها ألوان من قبيل الأخضر والبني والأصفرالذهبي والبرتقالي...خصوصا في تزيين الإطار الزخرفي للوحاته ممّل يضفي على تلك اللوحات بعدا جماليا.

[1]آلاء علي عبودا الحاتمي، تسواهن تكليف مجيد، الملامح البدائية في تشكيل ما بعد الحداثة، نابلو للدراسات والبحوث، العدد:12، كانون الأول 2012م، ربيع الأول 1438هـ،ص226.

[2] مازن عصفور،انعكاسات العلم على الفن من فيتاغورس الى الثورة الرقمية دراسة ظاهرتية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 46، العدد:1، ملحق:2، 2019م، ص.343.

[3]تاجوري عبد الإله، رحوي حسين، الفكر التجريبي في الفن التشكيلي الجزائري رؤية ومنهج، الحوار الثقافي، م:8، العدد:1، 04أفريل 2018م، ص.229

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500_1830م، ج:2، دار الغرب الإسلامي، 1998م، ص.121

[5]ينظر عبد الصدوق إبراهيم، الفكر الثوري في الفن التشكيلي الجزائري، جماليات، م:4، العدد:1 ديسمبر 2017م، ص.56

[6]الشيخ طر الوالي، المسجد في الإسلام، دار العلن للملايين، لبنان،ط:1988،1م،ص.275

[7]https://elqnah-news.com/

[8] http://www.mixaloan.com/

[9] http://www.mixaloan.com/

[10]ينظر عزيز سامح الستر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا الشمالية ، دار النهضة العربية، لبنان، د.ت،ص.41

[11]عائشة حنفي، لباس البدن عند الرجال بمدينة الجزائر في العهد العثماني، حوليات المتحف الوطني للآثار، 2000، ص.71

- ولد محمد راسم بالجزائر العاصمة سنة 1896من أسرة فنية عريقة، درس الفن على يد والده وفي مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر العاصمة سنة 1910، عمل أستاذا بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة بالجزائر سنة 1934وأمينا عاما بجمعية الفنانين الجزائريين والمستشرقين، حاز على العضوية الشرفية بالجمعية الملكية لرسامي المنمنمات بلندن سنة 1950، شارك في العديد من المعارض الفنية بالجزائر في سنوات(1926_ 1935_ 1944_ 1963_ 1967_ 1974)، وضع محمد راسم أسس فن المنمنمات الجزائرية ، توفي الفنان سنة 1975في ظروف أليمة تاركا لوحات فنية خالدة تؤكد عبقرية الفنان وروحه الإبداعية في فن المنمنمات. (بتصرف https://ar.wikipedia.org

قائمة المصادر والمراجع:

_ آلاء علي عبودا الحاتمي، تسواهن تكليف مجيد، الملامح البدائية في تشكيل ما بعد الحداثة، نابلو للدراسات والبحوث، العدد:12، كانون الأول 2012م، ربيع الأول 1438هـ.

_ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500_1830م، ج:2، دار الغرب الإسلامي، 1998م.

_ الشيخ طر الوالي، المسجد في الإسلام، دار العلن للملايين، لبنان،ط:1988،1م.

_ تاجوري عبد الإله، رحوي حسين، الفكر التجريبي في الفن التشكيلي الجزائري رؤية ومنهج، الحوار الثقافي، م:8، العدد:1، 04أفريل 2018م.

_ مازن عصفور،انعكاسات العلم على الفن من فيتاغورس الى الثورة الرقمية دراسة ظاهرتية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 46، العدد:1، ملحق:2، 2019م.

_ عزيز سامح الستر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقياالشمالية، دار النهضة العربية، لبنان، د.ت.

المجلات والدوريات:

_ عبد الصدوق إبراهيم، الفكر الثوري في الفن التشكيلي الجزائري، جماليات، م:4، العدد:1 ديسمبر 2017م.

_ عائشة حنفي، لباس البدن عند الرجال بمدينة الجزائر في العهد العثماني، حوليات المتحف الوطني للآثار، 2000.

المواقع الالكترونية:

_https://elqnah-news.com/

_http://www.mixaloan.com

_ https://ar.wikipedia.org